الباب العاشر

أشــور

الفصل الأول

أخبارها

بداية تاريخها – مدنها – أصل سكانها – الفاتحون – سنحريب
وعسر هدون – « سردنابالوس »

فى أثناء الأحداث التاريخية السالفة الذكر ظهرت حضارة جديدة إلى شمال بابل وعلى بعد ثلثمائة ميل منها . واضطر أهل البلاد التى نشأت فيها هذه الحضارة أن يحيوا حياة عسكرية شاقة أرغمتهم عليها القبائل الجبلية التى كانت لا تنفك تهددهم من جميع الجهات . وما لبثوا أن غلبوا هؤلاء المهاجمين واستولوا على المدن التى كانت مهدهم الأول فى عيلام وسومر وأكد وبابل ؛ وتغلبوا على فينيقية ومصر ، وظلوا مائتى عام كاملة يسيطرون بقوتهم الوحشية على بلاد الشرق الأدنى . وكان موقف سومر من بابل ، وموقف بابل من أشور كموقف كريت من بلاد اليونان وموقف بلاد اليونان من رمة ؛ فقد أنشأت المدينة الأولى حضارة ، وتعهدتها الثانية وأتمتها حتى بلغت ذروتها ، وورثتها الثالثة ، وأضافت إليها من عندها ، وحمتها ، وأسلمتها وهى تحتضر هدية منها إلى البرابرة الظافرين الذين كانوا يحيطون بها . ذلك أن البربرية تحيط على الدوام بالحضارة ، وتستقر فى وسطها ومن تحتها ، متحفزة لأن تهاجمها بقوة السلاح ، أو بالهجرة الجماعية ، أو بالتوالد غير المحدود . وما أشبه البربرية بالغابة المتلبدة فى البلاد الاستوائية تحاول أشجارها على الدوام

أن تقضي على معالم الإنسان المتحضر وتقاوم جهوده ، ولا تعترف قط بهزيمتها ، بل تظل قروناً طوالا صابرة تترقب حتى تتاح لها الفرصة لاستعادة ما فقدته من أرضين بفعل الإنسان المتحضر .

ونشأت الدولة الجديدة حول أربع مدائن ترويها مياه نهر دجلة وروافده ؛ وهي أشور ومحلها الآن قلعة شرغات ، وأربلا وهي إربل الحالية ، والكلخ وهي الآن نمرود ، ونينوى وهي قوير نجلك . على الضفة المقابلة لمدينة موصل مدينة الزيت . وقد عثر المنقبون في أطلال أشور على شظايا من السبج — الحجر الزجاجي الأسود — وعلى سكاكين وقطع من الفخار الأسود عليها رسوم هندسية توحي بأنها من أصل أسيوي[1] ، وكل هذه من مخلفات عصر ما قبل التاريخ . وكشفت بعثة أثرية حديثة في تبي جورا ، بالقرب من موقع نينوى عن بلدة يَرُد كاشفوها الفخورون تاريخها إلى عام ٣٧٠٠ ق . م رغم ما فيها من هياكل وقبور كثيرة ، وأختام اسطوانية متقنة النقش ، وأمشاط ونحلي ، ورغم ما عثروا عليه فيها من نرد هو أقدم نرد عُرف في التاريخ[2] . وتلك مسألة جديرة بتفكير المصلحين في هذه الأيام . وخلع الإله أشور اسمه على مدينة من مدنها (ثم على القطر كله آخر الأمر) ؛ وفي هذه المدينة كان يسكن أقدم ملوك هذه الأمة ، وظلوا يقيمون بها حتى اضطروا بسبب تعرضها لحر الصحراء اللافح ولهجمات جيرانهم البابليين إلى إنشاء عاصمة ثانية لهم في مكان أقل من العاصمة الأولى حرارة ، وكانت هذه العاصمة الثانية هي نينوى ؛ واسمها هي أيضاً مأخوذ من اسم إله من آلهتهم هو الإله نينا إشتار الأشوريين . وكان ثلثمائة ألف من الأهلين يسكنون في نينوى أيام مجدها في عهد أشور بانيبال كما كان ملوكها — ملوك الأرض عادة — يتلقون الجزية من جميع بلاد الشرق القريبة .

وكان الأهلون خليطاً من الساميين الذين وفدوا إليها من بلاد الجنوب المتحضرة (أمثال بابل وأكد) ، ومن قبائل غير سامية جاءت من الغرب

(ولعلهم من الحثيين أو من قبائل تمت بصلة إلى قبائل ميتانى) ، ومن الكرد سكان الجبال الآتين من القفقاس[٣] ، وأخذ هؤلاء كلهم لغتهم المشتركة وفنونهم من سومر ، ولكنهم صاغوها فيما بعد صياغة جديدة جعلتها لا تكاد تفترق فى شىء عن لغة أرض بابل وفنونها . بيد أن ظروفهم الخاصة باعدت بينهم وبين النعيم المخنث الذى انحدر إليه البابليون[٤] ؛ ولذلك ظلوا طوال عهدهم شعباً محارباً مفتول العضلات ، ثابت الجنان ، غزير الشعر ، كث اللحى ، معتدل القامة ، يبدو رجاله فى آثارهم عابسين ، ثقيلى الظل ، يطئون بأقدامهم الضخمة عالم البحر المتوسط الشرقى . وتاريخهم هو تاريخ الملوك والرقيق ، والحروب والفتوح ، والانتصارات الدموية والهزائم المفاجئة . واغتنم ملوكهم — الكهنة الأوائل — وكانوا أقيالا خاضعين لأهل الجنوب — سيطرة الكاشيين على بابل فاستقلوا عنها ، ولم يمض إلا القليل حتى ازدان أحدهم باللقب الذى ظل ملوك أشور يتباهون به طوال عهدهم وهو « الملك صاحب الحكم الشامل » . ويبرز أمامنا من بين هؤلاء الأقيال الخاملى الذكر أفراد تهدينا أعمالهم إلى معرفة السبيل التى سلكتها بلادهم فى نمائها وتطورها[*] .

فبينما كانت بلاد بابل تتخبط فى ظلمات حكم الكاشيين ضم سلما نصر الأول دويلات المدن الشمالية تحت حكمه ، واتخذ الكلخ عاصمة له . على أن أول الأسماء العظيمة فى تاريخ أشور هو اسم تغلث فلاصر الأول . كان هذا الملك صياداً ماهراً ، وإذا كان من الحكمة أن نصدق أقوال الملوك فإنه قد قتل وهو راجل مائة وعشرين أسدا ، وقتل وهو فى عربته ثمانمائة[٥] ، وجاء فى نقش خطه كاتب أكثر ملكية من الملك نفسه — أنه كان يصيد الأمم والحيوانات على

(*) وقد وجدت من عهد قريب فى خرائب مكتبة سرجون الثانى لوحة تحتوى ثبتا متصلا لا ثغرة فيه بأسماء الملوك الأشوريين من الأسرة الثالثة والعشرين إلى أشور نيرارى (٧٥٣ — ٧٤٦ ق . م (٤)) .

السواء . « وسرت فى بأسى الشديد على شعب قموه ، وفتحت مدائنهم ، وسقت منها الغنائم ، واستوليت على ما لا حصر له من بضائعهم وأملاكهم ، وحرقت مدنهم بالنار ، ودمرتها وخربتها . . . وخرج أهل ادنّش من جبالهم واحتضنوا قدمى ، وفرضت عليهم الجزية[٦] » . وقد ساق هذا الملك جيوشه فى كل اتجاه ، فأخضع الحثيين والأرمن وأربعين أمة غيرهما ، واستولى على بابل ، وأرهب مصر فأرسلت له الهدايا وهى قلقة وجلة ، (وكان منها تمساح ألانه كثيراً وخفف من غضبه) . وبنى من الخراج الذى دخل خزائنه هياكل لآلهة الأشوريين وإلاهاتهم ، ولم تسأله هذه الآلهة عن مصدر هذه الثروة كلها كأنما كان همها كله أن تكون لها هياكل تقرب فيها القرابين . ثم خرجت بابل عليه ، وهزمت جيوشه ، ونهبت هياكله ، وعادت إلى بابل تحمل معها آلهته أسرى . ومات تغلث فلاصر خزيا وغما[٧] .

وكان حكمه رمزاً للتاريخ الأشورى كله وصورة مصغرة منه : حرب وجزية فرضهما على جيران أشور ثم فُرضا على أشور نفسها . واستولى أشور ناصر بال على اثنتى عشرة دولة صغيرة ، وعاد من حروبه بمغانم كثيرة ، وسمل بيده عيون خمسين من الأسرى ، واستمتع بنسائه ، ومات ميتة شريفة[٩] . ومد سلما نصر الثالث هذه الفتوح حتى دمشق ، وحارب عدة وقائع تكبد فيها خسائر فادحة ، وقتل فى واقعة واحدة ستة عشر ألفاً من السوريين ، وشيد الهياكل ، وفرض الجزية على المغلوبين . ثم ثار عليه ابنه ثورة عنيفة وخلعه[٩] . وحكمت سموررامات أم الملك ثلاث سنين ، وكان حكمها هو الأساس التاريخى الراهن لأسطورة سميراميس اليونانية ، التى تجعل منها نصف إلهة ونصف ملكة ، وقائدة باسلة ، ومهندسة بارعة ، وحاكمة محنكة مدبرة . وتلك الأسطورة هى كل ما نعرفه عن هذه الملكة . وقد وصفها ديودور الصقلى وصفاً مفصلا بديعاً[١٠] . وجيّش تغلث فلاصر الثالث جيوشاً جديدة ، واستعاد أرمينية ، واجتاح سوريا

وبابل ، وأخضع لحكمه دمشق والسامرة ، وبابل . ومد ملك أشور من جبال القفقاس إلى مصر . ولما مل الحرب وجه همه إلى شئون الحكم ؛ فأثبت أنه إدارى عظيم ، وشاد كثيراً من الهياكل والقصور ، وساس إمبراطوريته الراسخة سياسة قوية حازمة ، وأسلم روحه وهو فى فراشه ؛ وجلس على العرش سرجون الثانى ، وهو ضابط من ضباط الجيش ، على أثر انقلاب سياسى نابليونى ، وقاد جيوشه بنفسه ، وكان فى كل واقعة يتخذ لنفسه أشد المواقف خطورة[11] ، وهزم عيلام ومصر ، واسترد بابل . وخضع له اليهود والفلسطينيون بل واليونان سكان قبرص ، وحكم دولته حكماً صالحاً ، وناصر الفنون والآداب ، والصناعة والتجارة ، ومات فى واقعة نال فيها النصر على أعدائه ، ورد فيها عن أشور غارات الجحافل الكمرية المتوحشة التى كانت تهددها بالغزو .

وقضى ابنه سنحريب على الفتن التى ثار عجاجها فى الولايات المجاورة للخليج الفارسى ، وهاجم أورشليم ومصر دون أن يلقى نجاحاً(*) ، ونهب تسعاً وثمانين مدينة ، وثمانمائة وعشرين قرية ، وغنم سبعة آلاف ومائتى جواد ، وأحد عشر ألف حمار وثمانين ألف ثور ، وثمانمائة ألف رأس من الغنم ، ومائتين وثمانية آلاف من الأسرى[11] وهى أرقام لم يستخف بها الكاتب الرسمى الذى كتب سيرته ثم غضب على بابل لنزعتها إلى الحرية فحاصرها ، واستولى عليها ، وأشعل فيها النار فدمرتها تدميراً ، ولم يكد يبقى على أحد من أهلها رجلا كان أو امرأة ، صغيراً كان أو كبيراً ، بل قتلهم عن آخرهم تقريباً ، حتى سدت جثثهم مسالك المدينة ، ونهبت المعابد حتى لم يبق فيها شاقل واحد ، وحطمت آلهة بابل صاحبة السلطان الأعظم القديم ، وسيقت أسيرة ذليلة إلى نينوى . وأصبح مردك الإله الأكبر

(*) وتعزو الرواية المصرية نجاة مصر إلى فعل جماعة من جرذان الحقول القطنة قرضت كنائن الجيوش الأشورية المعسكرة أمام بلوزيوم ؛ وأوتار قسيهم ؛ وأربطة دروعهم ، فاستطاع المصريون بذلك أن يهزموا الأشوريين فى اليوم الثانى دون عناء كبير(١٢) .

خادماً ذليلا للرب أشور . ولم ير من بقي حيا من البابليين أنهم كانوا مبالغين في تقدير قوة مردك وعظمته ؛ بل قالوا لأنفسهم ما قاله الأسرى اليهود بعد مائة عام من ذلك الوقت ، قالوا إن إلههم قد شاء له تواضعه أن ينهزم ليعاقب بذلك شعبه . واستخدم سنحريب غنائم نصره وما انتهبه من البلاد المفتوحة في إعادة بناء نينوى ، وحول مجرى النهرين لحمايتها من الاعتداء ، وبذل في إصلاح الأرض البور من القوة والنشاط ما تبذله الدول التي تشكو عدم وجود فائض لديها من غلاتها الزراعية ، ثم قتله أبناؤه وهو يتلو الصلوات(١٤) .

وقام ابن له من غير القتلة وهو عسر هدن وانتزع العرش من إخوته السفاحين ، وغزا مصر ليعاقبها على ما قدمته من المعونة للثوار السوريين ، وضمها إلى أملاكه ، وأدهش غربي آسية بسيره المظفر من منف إلى نينوى ومن خلفه ما لا يحصى من المغانم ؛ وجعل أشور سيدة بلاد الشرق الأدنى بأجمعها ، وأفاء عليها من الرخاء ما لم يكن لها به عهد من قبل ، واسترضى البابليين بإطلاق آلهتهم الأسيرة وتكريمها وإعادة بناء عاصمتهم المخربة ، كما استرضى عيلام بتقديم الطعام إلى أهلها الجياع . وكان ما قدمه من الإغاثة على هذا النحو عملا لا يكاد يوجد له مثيل في التاريخ القديم كله ؛ ومات عسر هدن وهو سائر إلى مصر ليخمد فيها ثورة بعد أن حكم إمبراطوريته حكما لم تر له في تاريخها شبه الهمجي مثيلا في عدله ورحمته .

وجنى خلفه أشور بانيپال (وهو الذي يسميه اليونان سردنا پالوس) ثمرة هذه الأعمال ، فوصلت أشور في خلال حكمه الطويل إلى ذروة مجدها وثروتها . ولكن بلاده بعد وفاته فقدت هذا العز ، فوهنت قوتها وفسدت أمورها لطول عهدها بالحروب المنقطعة التي خاضت غمارها أربعين عاماً ، وأدركها الفناء ، ولما يمض على موت أشور بانيپال عشر سنين . وقد احتفظ لنا أحد الكتاب بسجل سنوي لأعماله(١٥) ، وهو سجل ممل ينتقل فيه من حرب إلى حرب ، ومن حصار إلى حصار ، ثم إلى مدن جائعة وأسرى تسلخ جلودهم وهم أحياء . وينطق هـذا الكاتب نفسه

أشور بانيپال فيحدثنا عما خربه من بلاد عيلام ويقول : « لقد خربت من بلاد عيلام ما طوله مسير شهر وخمسة وعشرين يوماً . ونشرت هناك الملح والحسك (لأجدب الأرض) وسقت من المغانم إلى أشور أبناء الملوك ، وأخوات الملوك ، وأعضاء الأسرة المالكة فى عيلام صغيرهم وكبيرهم ، كما سقت منها كل من كان فيها من الولاة والحكام ، والأشراف والصناع ، وجميع أهلها الذكور والإناث كباراً كانوا أو صغاراً ، وما كان فيها من خيل وبغال وحمير وضأن وماشية تفوق فى كثرتها أسراب الجراد ، ونقلت إلى أشور تراب السوس ، ومدكتو ، وهلتماش وغيرها من مدائنهم . وأخضعت فى مدة شهر من الأيام بلاد عيلام بأجمعها ؛ وأخمدت فى حقولها صوت الآدميين ، ووقع أقدام الضأن والماشية ، وصراخ الفرح المنبعث من الأهلين ، وتركت هـذه الحقول مرتعاً للحمير والغزلان والحيوانات البرية على اختلاف أنواعها(١٦) » .

وجيء برأس ملك عيلام القتيل إلى أشور بانيپال وهو فى وليمة مع زوجته فى حديقة القصر ، فأمر بأن يرفع الرأس على عمود بين الضيوف ، وظل المرح يجرى فى مجراه ، وعلّق الرأس فيما بعد على باب نينوى ، وظل معلقاً عليه حتى تعفّن وتفتّت . أما دنانو القائد العيلامى فقد سلخ جلده حياً ، ثم ذبح كما يذبح الحمل ، وضرب عنق أخيه ، وقطع جسمه إرباً ، ووزع هدايا على أهل البلاد تذكاراً لهذا النصر المجيد(١٧) .

ولم يخطر قط ببال أشور بانيپال أنه ورجاله وحوش كاسرة أو أشد قسوة من الوحوش ، بل كانت جرائم التقتيل والتعذيب هذه فى نظرهم عمليات جراحية لا بد منها لمنع الثورات وتثبيت دعائم الأمن والنظام بين الشعوب المختلفة المشاكسة المنتشرة من حدود الحبشة إلى أرمينية ، ومن سوريا إلى ميديا ، والتى أخضعها أسلافه لحكم أشور . لقد كانت هذه الوحشية فى رأيه واجباً يفرضه عليه حرصه على أن يبقى التراث سليما . وكان يتباهى بما وطده فى ربوع إمبراطوريته من أمن

وسلام ، وبما ساد مدنها من نظام . والحق أن هذا التباهى لم يكن على غير أساس . على أن هذا الملك لم يكن مجرد ملك فاتح أسكره سفك الدماء ، وشاهد ذلك ما شاده من المبانى وما بذله فى تشجيع الفنون والآداب . فقد بعث الملك إلى جميع أنحاء دولته يدعو المثالين والمهندسين ليضعوا له رسوم الهياكل والقصور ويزينوها كما فعل بعض الحكام الرومان بعد أن استولت رومة على بلاد اليونان . وأمر عدداً كبيراً من الكتبة أن يجمعوا وينسخوا كل ما خلفه السومريون والبابليون من آداب ، ووضع ما نسخوه وما جمعوه كله فى مكتبته العظيمة فى نينوى ، وهناك وجدها علماء هذه الأيام سليمة أو تكاد بعد أن مرت عليها خمسة وعشرون قرناً من الزمان .

وكان مثل فردرك الأكبر يفخر بملكاته الأدبية كما يفخر بانتصاراته فى الحرب والصيد[١٨] . ويصفه ديودور الصقلى بأنه طاغية فاسق خنثى[١٩] ، ولكننا لا نجد فى جميع الوثائق التى وصلت إلينا على كثرتها ما يؤيد هذا القول . وكان أشــور بانيپال إذا فرغ من تأليف ألواحه الأدبية خرج إلى الصيد فى اطمئنان الملوك وثقتهم بأنفسهم وليس معه من السلاح إلا سكين وحربة ، فقابل الآساد وجهاً لوجه . وإذا جاز لنا أن نصدق ما كتبه عنه معاصروه فإنه لم يكن يتردد قط فى أن يتولى قيادة الهجوم عليها بنفسه ، وكثيراً ما سدد الضربة القاضية بيده[٢٠] . فلا عجب والحالة هذه إذا افتتن به الشاعر بيرن **Byron** ونسج حول اسمه مسرحية نصفها أسطورى والنصف تاريخى ، صور فيها ما بلغته أشور فى أيامه من الثروة والمجد ، وما داهمها بعدئذ من خراب شامل ، وما حل بمليكها من قنوط .

الفصل الثاني

الحكومة الأشورية

النزعة الاستعمارية — الحروب الأشورية — الآلهة المحندة — القانون
لذة الانتقام والتعذيب — الإدارة — عنف ملوك الشرق

إذا جاز لنا أن نأخذ بالمبدأ الاستعمارى القائل إن سيادة حكم القانون ، ونشر الأمن ، والتجارة ، والسلم فى العالم تبرر إخضاع كثير من الدول طوعاً أو كرهاً لسلطان حكومة واحدة ، إذا جاز لنا أن نأخذ بهذا المبدأ كان علينا أن نقر لأشور بذلك الفضل الكبير ، وهو أنها أقامت فى غربى آسية حكماً كفل لهذا الإقليم قسطاً من النظام والرخاء أكبر مما استمتع به هذا الجزء من الأرض فيما نعلم قبل ذلك العهد . ذلك أن حكومة أشور بانيپال التى كانت تضم تحت جناحيها بلاد أشور ، وبابل ، وأرمينية ، وميديا ، وفلسطين ، وسوريا ، وفينيقية ، وسومر ، وعيلام ، ومصر كانت بلا جدال أوسع نظام إدارى شهده عالم البحر المتوسط أو عالم الشرق الأدنى حتى ذلك العهد ؛ ولم يدان أشور بانيپال فيه إلا حمورابى أو تحتمس الثالث ، ولم يضارعه قبل عهد الإسكندر إلا الفرس وحدهم . وكانت هذه الإمبراطورية تستمتع بقسط من الحرية ، فقد احتفظت مدنها الكبرى بحظ موفور من الحكم الذاتى المحلى ، كما احتفظت كل أمة فيها بدينها ، وقوانينها وحاكمها ، ما دامت لا تتوانى عن أداء الجزية المفروضة عليها(٢١) .

ومن شأن هذا النظام المفكك أن يؤدى كل تراخ فى سلطته المركزية إلى الثورات الشعبية أو فى القليل إلى بعض التراخى فى أداء الجزية ، وكان لا بد والحالة هذه من إعادة فتح البلاد المرة بعد المرة . وأراد تغلث فلاصر أن يتحاشى خطر

هذه الثورات المتكررة فوضع تلك السياسة التى تمتاز بها أشور على غيرها من الأمم وهى نقل أهل البلاد المفتوحة إلى بلاد أخرى بعيدة ، يمتزجون فيها بسكانها الأصليين امتزاجاً قد يفقدهم وحدتهم وكيانهم ، ويقلل الفرص السانحة لهم للعصيان . على أن هذه الخطة لم تمنع اندلاع لهيب الثورات ، فاضطرت أشور بسببها إلى أن تكون مستعدة على الدوام لامتشاق الحسام .

من أجل هذا كان الجيش أقوى دعامة للدولة وأهم مقوماتها ، وكانت أشور تعترف اعترافاً صريحاً بأن الحكم هو تأميم القوة ، ولذلك فإن ما لها من فضل على قضية التقدم إنما كان فى فن الحرب . فهى التى نظمت فرق المركبات ، والفرسان ، والمشاة ، والمهندسين الذين يقوّضون الأبنية ؛ وقد وضع الأشوريون لهذه الفرق نظاماً يسهل معه تحريكها وتوجيهها من ناحية إلى أخرى فى ميدان القتال . وكانت لهم آلات للحصار لا تقل فى قوتها عما كان منها عند الرومان ، وكانوا يجيدون فهم الفنون الحربية الخاصة بتعبئة الجنود وحركاتهم[٣٢] . وكانت القاعدة الأساسية التى تقوم عليها حركاتهم العسكرية هى السرعة التى تمكنهم من مهاجمة كل قسم من أقسام الجيوش المعادية على انفراد — ألا ما أقدم هذا السر الذى أفاد منه نابليون أعظم الفائدة ! وتقدمت صناعة الحديد عندهم إلى حد أمكنهم أن يلبسوا الجنود حُللا حديدية سابغة كحلل فرسان العصور الوسطى . وحتى الرماة وحملة الرماح كانوا يلبسون على رءوسهم خوذاً من النحاس أو الحديد ، وأرهاطاً محشوة حول الحقوين ، ومجنات ضخمة ونطاقات من الجلد المغطى بأسماط معدنية . وكانت أسلحتهم السهام والرماح ، والسيوف القصار والصوالج ، والهراوات المنتفخة الرءوس ، والمقاذيف والبلط الحربية . وكان أكابر القوم يحاربون فى عربات فى طليعة الجيش ، يقودهم فى العادة مليكهم بنفسه وهو راكب فى عربة ملكية ، ولم يكن القواد قد تعلموا أن يموتوا فى فراشهم(*) .

(*) انظر قول العرب فى هذا المعنى : وما مات منا سيد فى فراشه . . . (المترجم)

وأدخل أشور بانيپال نظام استخدام الفرسان لمعاونة المركبات ، وكانت هذه البدعة ذات أثر حاسم فى كثير من الوقائع(٢٣) . وكانت أهم أدوات الحصار هى الكباش المسلحة مقدماتها بالحديد . وكانت أحياناً تعلق بالحبال فى عامول ، وتطوح إلى الوراء لتزيد بذلك قوتها ، وأحياناً أخرى كانت تجرى على عجلات . أما المحاصَرون فكانوا يحاربون من وراء الأسوار بالقذائف والمشاعل ، والغاز الملتهب ، والسلاسل التى يراد بها عرقلة الكباش ، وأوعية من غازات نتنة تذهب بعقول الأعداء(٢٤) — وما أشبه اليوم مرة أخرى بالبارحة . وكانتِ العادة المألوفة أن تُدمَّر المدينة المغلوبة وتُحرق عن آخرها ؛ وكان المنتصرون يبالغون فى محو معالمها بتقطيع أشجارها(٢٥) . وكان الملوك يكسبون ولاء جنودهم بتقسيم جزء كبير من الغنائم بينهم . وكانوا يضمنون شجاعتهم باتباع العادة المألوفة فى الشرق الأدنى وهى اتخاذ جميع أسرى الحرب عبيداً أو قتلهم عن آخرهم . وكان الجنود يكافأون على كل رأس مقطوع يحملونه من ميدان القتال ، ولهذا كانت تعقب المعركة فى أغلب الأحيان مجزرة تقطع فيها رءوس الأعداء(٢٦) . وكثيراً ما كان الأسرى يقتلون عن آخرهم بعد الواقعة حتى لا يستهلكون الكثير من الطعام ، وحتى لايكونوا خطراً على مؤخرة الجيش أو مصدر متاعب له . وكانت طريقة التخلص منهم أن يركعوا متجهين بظهورهم إلى من أسروهم ، ثم يضرب الآسرون رءوسهم بالهراوات ، أو يقطعونها بسيوفهم القصيرة . وكان الكتبة يقفون إلى جانبهم ليحصوا عدد من يأسرهم كل جندى ويقتلهم ، ويقسمون الفىء بينهم بنسبة قتلاهم ؛ وكان الملك إذا سمح له وقته يرأس هذه المجزرة . أما الأشراف المغلوبون فكانوا يلقون شيئاً من المعاملة الخاصة ، فكانت تصلم آذانهم ، وتجدع أنوفهم ، وتقطع أيديهم وأرجلهم ، أو يقذف بهم إلى الأرض من أبراج عالية ، أو تقطع رءوسهم ورءوس أبنائهم ، أو تسلخ جلودهم وهم أحياء ، أو تشوى أجسامهم فوق نار هادئة . ويلوح أن القوم لم يكونوا يشعرون بشىء من وخز

الضمير وهم يسرفون فى إتلاف الحياة البشرية بهذه الطرق الجهنمية . فلعل أن نسبة المواليد العالية تعوض عليهم هذا التقتيل ، أو أن هذه الوسيلة تقلل من تزاحم الأهلين على مورد العيش إلى أن يتناسلوا ويتكاثروا[٢٧] . ولعل ما أشيع من حُسن معاملة الإسكندر وقيصر للأسرى ورحمتهما بهم كانا من أسباب قضائهما على روح أعدائهما المعنوية وسرعة استيلائهما على بلاد البحر المتوسط .

وكانت القوة الثانية التى يعتمد عليها الملك هى قوة الدين ، ولكنه لم يكن ينال معونة الكهنة إلا بأغلى الأثمان . فقد كان إجماع القوم منعقداً على أن رأس الدولة من الوجهة الرسمية هو الإله أشور . وكانت الأوامر الرسمية تصدر باسمه ، وكل القوانين قرارات تمليها إرادته الإلهية ، وكل الضرائب تجمع لخزانته ، وكل الحروب تشن لتأتى له (أو لإله غيره أحياناً) بالمغانم والمجد . وكان الملك يحمل الناس على أن يصفوه بأنه إله ، وكان فى العادة هو الإله شمش (الشمس) مجسماً . وقد أخذ الأشوريون دينهم عن سومر وبابل كما أخذوا عنهما علومهما وفنونهما ، وكانت هذه كلها تكيّف أحياناً كما يتفق مع مطالب الدولة العسكرية .

وأظهر ما كان هذا التكييف فى القانون ، فقد يمتاز بالقسوة العسكرية ، وكانت العقوبات تتراوح بين العرض على الجماهير ، والأشغال الشاقة ، والجلد بالسياط من عشرين إلى مائة جلدة ، وجدع الأنف وصلم الأذنين ، والإخصاء ، وقطع اللسان ، وسمل العينين ، والخزق ، وقطع الرأس[٢٨] . وتصف قوانين سرجون الثانى بعض المُتع الأخرى كشرب السم ، وحرق ابن المذنب أو ابنته حيّين على مذبح الإله[٢٩] . ولكننا لا نجد شواهد على أن هذه القوانين كانت نافذة فى الألف السنة الأولى قبل مولد المسيح . وكان الزنى ، وهتك العرض ، وبعض أنواع من السرقة تعدّ من الجرائم التى يعاقب عليها بالإعدام[٣٠] . وكانوا يلجأون أحياناً إلى طريقة تحكيم الآلهة ، فكان المتهم يلقى فى النهر وهو مقيّد القدمين فى بعض الأحيان ، ويترك الحكم عليه لمشيئة الماء . وكانت القوانين

الأشورية فى العادة أبعد عن الطابع الدنيوى ، وأكثر بداثية من قوانين حمورابى البابلية التى كانت على ما يبدو لنا أقدم منها عهداً(*) .

وكانت الحكومة المحلية فى بداية الأمر يقوم بها أمراء الإقطاع ، ثم آلت على توالى الزمن إلى ولاة الأقاليم ومديريها المعيّنين من قِبَل الملك . وأخذ الفُرْس عن الأشوريين هذا الضرب من الحكم الإمبراطورى ومنهم انتقل إلى رومة . وكان يعهد إلى الولاة جمع الضرائب وتنظيم العمال المسخرين فى الأعمال العامة ، كأعمال الرى ، التى لم يكن فى الإمكان تركها للجهود الفردية ؛ وأهم ما كان يطلب إليهم هو تجنيد العساكر ، وقيادتهم فى الحروب الملكية . وكان للملك جواسيس (أو رجال قلم المخابرات بلغة هذه الأيام) يراقبون هؤلاء الولاة وأعوانهم وينقلون إلى الملك أخبار الرعيّة .

وكانت الحكومة الأشورية بقضها وقضيضها أداة حرب قبل كل شىء . ذلك أن الحرب كثيراً ما كانت أنفع لها من السلم ، فقد كانت تثبت النظام ، وتقوى روح الوطنية ، وتزيد سلطان الملوك . وتأتى بالمغانم الكثيرة لتغنى بها العاصمة ، والعبيد لخدمتها . ومن ثم كان تاريخ الأشوريين يدور معظمه حول مدن تنهب ، وقرى وحقول تخرب . ولما أن قمع أشور بانيپال ثورة أخيه شمش — شم — أوكين واستولى على بابل بعد حصار طويل مرير :

«كان للمدينة منظر رهيب تتقزز منه نفوس الأشوريين أنفسهم ... فقد كان معظم من قضت عليهم الأوبئة والقحط ملقين فى الطرقات أو فى الميادين العامة ، فريسة للكلاب والخنازير . وحاول من كانت لهم بقية من القوة من الأهلين أو الجنود أن يفروا إلى الريف ، ولم يبق فى المدينة إلا من كان ضعيفاً لا يستطيع أن يجر قدميه إلى أبعد من أسوارها . وطارد أشور بانيپال هؤلاء

(*) وأقدم القوانين الأشورية التى بقيت إلى هذه الأيام قانون مؤلف من تسعين مادة مكتوبة على ثلاثة ألواح وجدت فى خرائب أشور ، ويرجع عهدها إلى حوالى عام ١٣٠٠ ق . م(٣١) .

المشردين ، ولما أن قبض عليهم كلهم تقريباً ، صب عليهم جام غضبه ونقمته ، فأمر بأن تقتلع ألسنة الجنود ، وأن يضربوا بعد ذلك بالهراوات حتى يموتوا . أما الأهالى فقد أمر بذبحهم أمام العجول المجنحة العظيمة ، التى شهدت منذ خمسين عاماً مجزرة أخرى شبيهة بهذه المجزرة فى عهد جده سنحريب . وظلت جيف هؤلاء الضحايا فى العراء زمناً طويلا تفترسها الوحوش القذرة والطيور(٣٢) .

لقد كان هذا الإسراف فى العنف من أكبر أسباب ضعف الممالك الشرقية . ذلك أن الثورات المتكررة لم تكن مقصورة على أهل الولايات ، بل إن قصور الملوك وأسرهم كثيراً ما كانت تهب لتقلب بالعنف ذلك النظام الذى قام على العنف ، والذى يستند إلى العنف ، وكثيراً ما كان تقع الفتنة يثور بين المطالبين بالعرش فى أواخر أيام كل ملك ، أو حين وفاته ، فكان الملك المعمر يرى المؤامرات تحاك من حوله ، وكثيراً ما كان يُستعجل موته بقتله . وكانت أمم الشرق الأدنى تؤثر الثورات العنيفة على الانتخابات الفاسدة الزائفة ، وكانت الوسيلة التى يتبعونها لسحب ثقتهم من حاكمهم هى القضاء على حياته . وما من شك فى أن بعض حروب الأشوريين كانت أمراً محتوماً لا مفر منه . فقد كان البرابرة يحيطون بتخوم البلاد كلها ، فإذا ما جلس على العرش ملك ضعيف انقض السكوديون والكمريون أو غيرهم من الهمج على المدن الأشورية الغنية يقتلون وينهبون . ولعلنا نبالغ فى كثرة الحروب والثورات العنيفة التى تأججت نيرانها فى هذه الدول الشرقية ، لأن من نقشوا الآثار من الأقدمين ، ومن أرخوا تلك الحوادث من الكتاب المحدثين ، قد عنوا بالتسجيل المسرحى للوقائع الحربية ، وغفلوا عن انتصارات السلم . إن المؤرخين طالما تحيزوا إلى سفك الدماء ، ذلك بأنهم قد وجدوه ، أو ظنوا أن قراءهم سيجدونه ، أكثر لذة لهم من أعمال العقل الهادئة . ونحن نظن أن الحروب فى هذه الأيام أقل عدداً منها فى الأيام الحالية لأننا نحس بفترات السلم الصافية المتألقة ، على حين أن التاريخ لا يُحس ، كما يبدو لنا ، إلا بأزمات الحرب المحمومة .

الفصل الثالث

الحياة فى أشور

الصناعة والتجارة — الزواج والآداب العامة — الدين والعلم — الكتابة ودور الكتب — المثل الأعلى للرجل الكامل عند الأشوريين

لم تكن الحياة الاقتصادية عند الأشوريين تختلف كثيراً عنها عند البابليين؛ وذلك لأن هؤلاء وأولئك لم يكونوا فى كثير من الأحوال إلا أبناء الشمال وأبناء الجنوب من حضارة واحدة . وأهم ما كان بين البلدين من فروق أن المملكة الجنوبية كانت أكثر اشتغالا بالتجارة على حين أن الشمالية أكثر اشتغالا بالزراعة ، فكان أثرياء البابليين تجاراً فى الغالب ، أما أثرياء الأشوريين فكانوا عادة من كبار الملاك ، يشرفون بأنفسهم على ضياعهم الواسعة ، ويزدرون ازدراء الرومان من بعدهم أولئك الذين كانوا يكسبون المال بشراء البضائع رخيصة وبيعها غالية[٣٣]. بيد أن النهرين نفسهما كانا يفيضان على أرض المملكتين ويغذيانها ، ونظام الجسور والقنوات بعينه كان يسيطر فيهما على ما زاد من مياه النهرين ، والشواديف ذاتها كانت ترفع المياه من المجارى المنخفضة لتروى الحقول التى تزرع نفس القمح والشعير والذرة الرفيعة والسمسم(*) . وكانت الصناعات التى تعتمد عليها حياة أهل المدن واحدة ، وكان للمملكتين نظام واحد للموازين والمكاييل والمقاييس تتبادل بمقتضاه البضائع . وامتلأت نينوى وغيرها من الحواضر بالحرف والصناعات بفضل ما جلبه لها ملوكها من ثراء عظيم ، وإن كان موقع هذه المدن

(*) ومن الغلات الأشورية غير ما ذكرنا هنا الزيتون ، والعنب ، والثوم ، والبصل ، والخس ، والجرجير ، والبنجر ، واللفت ، والفجل ، والخيار ، والبرسيم الحجازى ، والعرقسوس . وقلما كان غير الموسرين يأكلون اللحم[٣٤] ، فقد كانت هذه الأمة الحربية أمة نباتية بوجه عام ، إذا استثنينا من ذلك لحم السمك .

obeikandl.com

فى الطرف الشمالى من الإقليم قد حال بينها وبين أن تكون مراكز تجارية كبرى . وكانت المعادن تستخرج من أرض البلاد أو تستورد بكثرة من خارجها

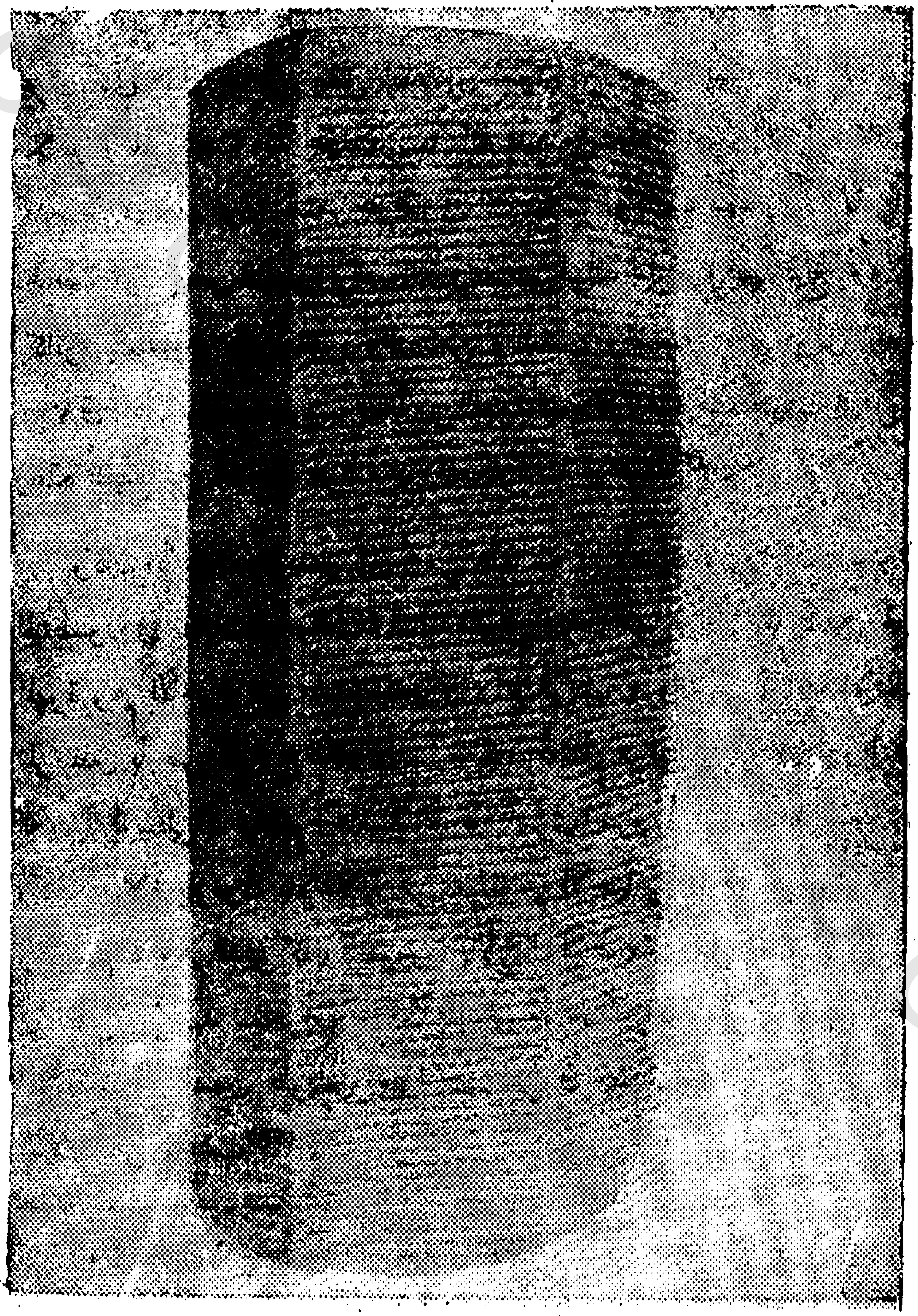

شكل (٢٩) منشور سنحريب — فى متحف بغداد

وفى عام ٧٠٠ ق . م أو حواليه أصبح الحديد بدل البرنز المعدن الأساسى فى الصناعة والتسليح[٣٥] ؛ وكانت المعادن تصهر ، والزجاج يصنع ، والمنسوجات تصبغ(*) . والخزف يطلى ؛ وكانت البيوت فى نينوى تجهز وتؤثث كما كانت تجهز فى أوروبا قبل الانقلاب الصناعى[٣٦] . وأنشئ فى عهد سنحريب مجرى مائى فوق قناطر ينقل الماء إلى نينوى من مكان يبعد عنها ثلاثين ميلا ؛ وقد كشفت منذ عهد قريب مائة قدم من هذا المجرى(**) فكانت أقدم مجرى مائى فوق قناطر عرف فى التاريخ . وكانت مصارف الأفراد الخاصة تمول بعض التجارة والصناعة وتتقاضى فوائد على قروضها تبلغ ٢٥٪ وكانوا يتعاملون بالرصاص والنحاس والذهب والفضة ؛ وحوالى عام ٧٠٠ ق . م . سك سنحريب قطعاً من الفضة قيمة الواحدة منها نصف شاقل — وهذه القطع من أقدم ما عرف من المسكوكات الرسمية[٣٧] .

وكان الأهلون مقسمين إلى خمس طبقات : الأعيان ، ورجال الصناعة المنتظمون فى نقابات ، والطبقة الثالثة تشمل أرباب المهن والحرف والعمال غير المهرة وهم الأحرار من صناع المدن وزراع الريف ؛ وتشمل الرابعة الأقنان المرتبطين بأرض المزارع الكبرى ، كما كان أمثالهم مرتبطين بها فى أوروبا فى العصور الوسطى ، وتضم الخامسة الأرقاء أسرى الحروب أو سجناء الديون ، وكان هؤلاء يلزمون بالإعلان عن مركزهم الاجتماعى بخرق آذانهم وحلق رءوسهم ، وهم الذين كانوا يقومون بالأعمال الوضيعة فى كل مكان . ونرى فى نقش من عهد سنحريب حراساً بأيديهم سياط يشرفون على هؤلاء الأرقاء المنتظمين صفين طويلين متوازيين يجرون قطعة ثقيلة من تمثال على نقالات من الخشب[٣٨] .

(*) ويحتوى لوح من عهد سنحريب (حوالى عام ٧٠٠ ق . م) على أقدم إشارة للقطن ، فقد ورد فيه : « الشجرة التى تثمر الصوف قطعوها واستخرجوا منها القطن الشعر[٣٥ا] » وأكبر الظن أنهم نقلوها من الهند .

(**) كشفت هذا المجرى البعثة العراقية التابعة للمعهد الشرقى بجامعة تشكاجو .

وكانت أشور تشجع الإكثار من النسل بقوانينها الأخلاقية وبما تسنه من الشرائع شأنها فى هذا شأن جميع الدول العسكرية ، فكان الإجهاض عندهم جريمة يعاقب عليها بالإعدام ، وكانت المرأة التى تجهض نفسها ، وحتى المرأة التى تموت وهى تحاول إجهاض نفسها ، تخزق بعد موتها(٣٩) . وكانت منزلة النساء فى أشور أقل منها فى بابل ، وإن كان منهن من بلغن منزلة سامية بالزواج والدسائس . وكانت تفرض عليهن عقوبات صارمة إذا ضربن أزواجهن ، ولم يكن يسمح للمتزوجات أن يخرجن إلى الطريق العام بغير الحجاب ، وكان يطلب إليهن أن يكن جد أمينات على أعراضهن — وإن كان يسمح لأزواجهن بأن يتخذوا لهم ما يشاءون من السرارى(٤٠) . وكان البغاء يُعد فى عرفهم أمراً لا بد منه وتنظمه القوانين(٤٠أ) . وكان للملك عدد من النساء يعشن معيشة العزلة ويقضين أوقاتهن فى الرقص والغناء والنزاع والتطريز والتآمر(٤١) . وإذا قَتَل الذى يَزنى بامرأته الزانىَ وهو متلبس بجريمته عُد ذلك من حقه ؛ وقد بقيت هذه العادة بعد أن زالت كثير من الشرائع التى كانت تبيحها . أما فيما عدا هذا فقد كانت قوانين الزواج فى أشور مثلها فى بابل خلا أمراً واحداً وهو أن الزواج كان فى كثير من الأحيان شراء بسيطاً ، وأن الزوجة كثيراً ما كانت تعيش فى منزل أبيها ويزورها من حين إلى حين(٤٢) .

ونشهد فى كثير من نواحى الحياة الأشورية صرامة أبوية نراها طبيعية فى شعب يعيش فى فتوحه ، ويعيش على حدود الهمجية ، بكل ما يشمله هذا اللفظ من معان . وكما أن الرومان كانوا يتخذون آلاف الأسرى بعد انتصارهم فى الحروب عبيداً لهم يقضون فى الرق كل حياتهم ، ويرسلون آلافاً آخرين إلى الحلبة الكبرى لتنهشهم السباع الجياع ، كذلك يبدو أن الأشوريين كانوا يجدون متعة — أو تدريباً ضرورياً لأبنائهم — فى تعذيب الأسرى ، وسمل عيون الأبناء أمام آبائهم ، وسلخ جلود الناس أحياء ، وشى أجسامهم فى الأفران ، وربطهم

بالسلاسل فى الأقفاص ليستمتع العامة برؤيتهم ، ثم إرسال من يبقى منهم حيا إلى نطع الجلاد[٤٣] . وفى هذا يحدثنا أشور بانيبال بقوله : « لقد سلخت جلود كل من خرج عليّ من الزعماء ، وغطيت بجلودهم العمود ، وسمرت بعضهم من وسطهم فى الجدران ، وأعدمت بعضهم خزقاً ، وصففت بعضهم حول العمود على الخوازيق . . . أما الزعماء والضباط الذين ثاروا فقد قطعت أطرافهم[٤٤] » .

ويفخر أشور بانيبال بأنه « حرق بالنار ثلاثة آلاف أسير ، ولم يبق على واحد منهم حياً ليتخذه رهينة »[٤٥]. ويقول نقش آخر من نقوشه « أما أولئك المحاربون الذين أذنبوا فى حق أشور وائتمروا بالشر عليّ : . . فقد انتزعت ألسنتهم من أفواههم المعادية وأهلكتهم ، ومن بقى منهم على قيد الحياة قدمتهم قرابين جنازية ، وأطعمت بأشلائهم المقطعة الكلاب والخنازير والذئاب . . . وبهذه الأعمال أدخلت السرور على قلوب الآلهة العظام »[٤٦]. وأمر ملك آخر من ملوكهم الصُنّاع أن ينقشوا على الآجر هذه العبارات التى يرى أن من حقه على الخلف أن يعجبوا بها : « إن عجلاتى الحربية تهلك الإنسان والحيوان . . . إن الآثار التى أشيّدها قد أقيمت من الجثث الآدمية التى قطعت منها الرءوس والأطراف ، ولقد قطعت أيدى كل من أسرتهم أحياء »[٤٧] . وتصوّر النقوش التى كشفت فى نينوى الرجال يُخزَقون أو يسلخون أو تُقطع ألسنتهم ؛ ويصوّر نقش منها ملكاً من الملوك يفقأ أعين الأسرى برمح ، ورءوسهم مثبتة فى أماكنها بحبل يخترق شفاههم[٤٨] . ولا يسعنا ونحن نقرأ هذه الصحف إلا أن نحمد الله على مركزنا المتواضع .

ويبدو أن الدّين لم يكن له أثر قط فى تخفيف هذا العنف وهذه الوحشية . ذلك أن الدّين لم يكن له من السلطان على الحكومة بقدر ما كان له فى بابل ، وأنه كان يكيّف نفسه حسب حاجات الملوك وأذواقهم . وكان أشور إلههم القومى من آلهة الشمس ، ذا روح حربية ، لا يشفق على أعدائه . وكان عُبّاده يعتقدون

أنه يغتبط برؤية الأسرى يقتلون أمام مزاره(٤٩). وكان العمل الجوهرى الذى تؤديه الديانة الأشورية هو تدريب مواطن المستقبل على الطاعة التى تتطلبها منه وطنيته ، وأن تعلّمه مداهنة الآلهة لكسب ودّهم ورضاهم بضروب السحر والقرابين . ومن أجل هذا كان كل ما وصل إلينا من النصوص الدينية الأشورية لا يخرج عن الرقى والفأل والطيرة . ولدينا من هذين كشوف طويلة حدّدت فيها لكل حادثة نتائجها المحتومة ، ووصفت فيها الوسائل التى يجب اتباعها لتجنب هذه النتائج(٥٠). وكانوا يصوّرون العالم على أنه ملىء بالشياطين التى يجب اتقاء شرها بالتمائم المعلقة فى الرقاب ، أو الرقى الطويلة التى تجب تلاوتها بدقة وعناية .

وذلك جوّ لا يزدهر فيه من العلوم إلا علم الحروب ، فقد كان الطب الأشورى هو الطب البابلي لم يزيدوا عليه شيئاً ، ولم يكن علم الفلك الأشورى إلا التنجيم البابلى ، فكان أهم غرض تدرس من أجله النجوم هو التنبؤ بالغيب(٥١) ولسنا نجد عندهم شواهد على البحوث الفلسفية ولم نعثر على ما يثبت أنهم حاولوا أن يفسروا العالم من غير طريق الدين . وقد وضع علماء اللغة الأشوريون قوائم بأسماء النباتات ، ولعلهم وضعوها ليستعينوا بها فى صناعة الطب ، وبذلك قدّموا بعض العون لعلم النباتات ؛ ووضع غير هؤلاء من الكتبة قوائم تكاد تحتوى على كل ما كان على الأرض من أشياء ، وكان فيما حاولوه من تصنيفها بعض العون لعلماء التاريخ الطبيعى من اليونان . وأخذت اللغة الإنجليزية من هذه الكشوف ، عن طريق اللغة اليونانية فى الغالب ، الألفاظ الإنجليزية الآتية :

hangar, gypsum, camel, plinth, rose, ammonia, jasper, cane, cherry, Laudanum, maphtha, sesame, hyssop and myrrh (52) (*)

ومن واجبنا أن نقر للألواح التى تسجل أعمال الملوك الأشوريين بذلك الفضل

(*) ويقابلها فى العربية الحظيرة ، والجبس ، والجمل ، وسفل الحائط (البلنت) ، والورد ، والنشادر ، واليشب ، والقصب ، والكرز ، وصبغة الأفيون (اللودنوم) والنفط ، والسمسم والحسب (الثغام) ، والمر .

العظيم وهى أنها أقدم ما بقى لدينا من الكتب فى علم التاريخ ، رغم ما تتصف به من الملل والسآمة ، وما تسجله من الأعمال الوحشية الدموية . وكانت هذه الألواح فى السنين الأولى مجرّد أخبار تروى ، كل ما تحتويه سجلات لانتصار الملوك ، لا تعترف لهم بأية هزيمة . ثم أصبحت فيما بعد وصفاً أدبياً منمقاً لما وقع من الأحداث الهامة فى كل واحد منهم . وأهم ما يخلد ذكر أشور فى تاريخ الحضارة هو مكتباتها ، فقد كانت مكتبة أشور بانيپال تحتوى ثلاثين ألف لوح من الطين مصنفة ومفهرسة ، وعلى كل واحد منها رقعة يسهل الاستدلال بها عليه . وكان على كثير منها تلك العبارة التى كانت من شارات الملك الخاصة : « فليحل ّ غضب أشور وبايت . . . على كل من ينقل هذا اللوح من مكانه . . . وليمحو اسمه واسم أبنائه من على ظهر الأرض »[٥٣] . وكثير من هذه الألواح منسوخة من أخرى أقدم منها لم يبيّن تاريخها ، تكشف أعمال الحفر عنها فى كل يوم . وقد أعلن أشور بانيپال أنه أنشأ مكتبته ليمنع الآداب البابلية أن يجرّ عليها النسيان ذيله .

ولكن الألواح التى يصح أن تسمى الآن أدباً لا تتجاوز عدداً قليلا منها ، أما معظمها فسجلات رسمية وأرصاد يقصد بها التنجيم والفأل والطيرة والتنبؤ بالمستقبل ، ووصفات طبية ، وتقارير ورقى سحرية ، وترانيم وصلوات وأنساب للملوك والآلهة[٥٤] . وأقل هذه الألواح مدعاة إلى الملل لوحان يعترف فيهما أشور بانيپال بحب الكتب والمعرفة ، وهو اعتراف يزرى به فى أعين مواطنيه ، والغريب أنه يكرر فيهما الاعتراف ويصرّ عليه إصراراً :

« أنا ، أشور بانيپال ، فهمت حكمة نابو(*) ووصلت إلى فهم جميع فنون كتابة الألواح . وعرفت كيف أضرب بالقوس وأركب الخيل والعربات ، وأمسك أعنتها . . وحبانى مردك ، حكيم الآلهة ، بالعلم والفهم هدية منه . . . ووهب لى

(*) إله الحكمة المقابل لتحوت ، وهرميس ، وعطارد فى البلاد الأخرى .

إنورت وشرجال الرجولة والقوّة ، والبأس الذى لا نظير له وعرفت صنعة أداپا الحكيم ، وما فى فن الكتبة كله من أسرار خفيّة ؛ وقرأت فى بناء الأرض والسموات وتدبرته ؛ وشهدت اجتماعات الكتبة وراقبت البشائر والنذر ؛ وشرحت السموات مع الكهنة العلماء ، وسمعت عمليات الضرب والقسمة المعقدة ، التى لا تتضح لأوّل وهلة . وكان من أسباب سرورى أن أكرّر الكتابات الجميلة الغامضة المدوّنة باللغة السومرية ، والكتابات الأكدية التى تصعب قراءتها . . . وامتطيت الأمهار ؛ ركبتها بحكمة حتى لا تجمح ، وشددت القوس ، وأطلقت السهم ، وتلك سمة المحارب ، ورميت الحراب المرتجفة كأنها رماح قصيرة . . . وأمسكت بالأعنة كسائق المركبات . . . ووجهت ناسجى دروع الغاب ومجناته كما يفعل الرائد ، وعرفت العلوم التى يعرفها الكتبة على اختلاف أصنافهم حينما يحين وقت نضجهم ، وتعلمت فى الوقت نفسه ما يتفق مع السيطرة والسيادة ، وسرت فى طرائقى الملكية »(٥٥) .

الفصل الرابع

الفن الأشورى

الفنون الصغرى — النقش المنخفض — التماثيل — البناء — صفحة من « سردناپلس »

بلغت أشور فى آخر عهدها ما بلغته معلمتها بابل فى الفنون ، وبزتها فى النقوش المنخفضة . فقد حفزت الثروة العظيمة التى تدفقت على أشور وكلخ ونينوى الفنانين والصناع الأشوريين إلى أن يخرجوا للأشراف ونساء الأشراف ، وللملوك وقصور الملوك ، وللكهنة والهياكل ، حلياً مختلفة الأشكال ، فصهروا المعادن وبرعوا فى تشكيلها وصناعتها كما نشاهد ذلك فى أبواب بلاوات العظيمة ،

شكل (٣٠) نقش أشورى يمثل مردك يقاتل تيامات
وجد فى كلخ ومحفوظ فى المتحف البريطانى

وفى الأثاث الفخم الجميل الشكل الدقيق الصنع المتخذ من أثمن الأخشاب ، والمقوى بالمعادن ، والمرصع بالذهب والفضة والبرنز والأحجار الكريمة(٥٦) . وكانت صناعة الفخار عندهم منحطة ، وفى الموسيقى لم يزيدوا على ما أخذوه منها عن البابليين ، ولكن التصوير بالطلاء الممزوج بالغراء وصفار البيض الزاهى الألوان أصبح من الفنون الأشورية الخاصة التى انتقلت إلى بلاد الفرس فبلغت فيها حد الكمال . وكان التصوير فى أشور كما كان على الدوام فى بلاد الشرق القديم فناً ثانوياً تابعاً للحرب يسير فى ركابها .

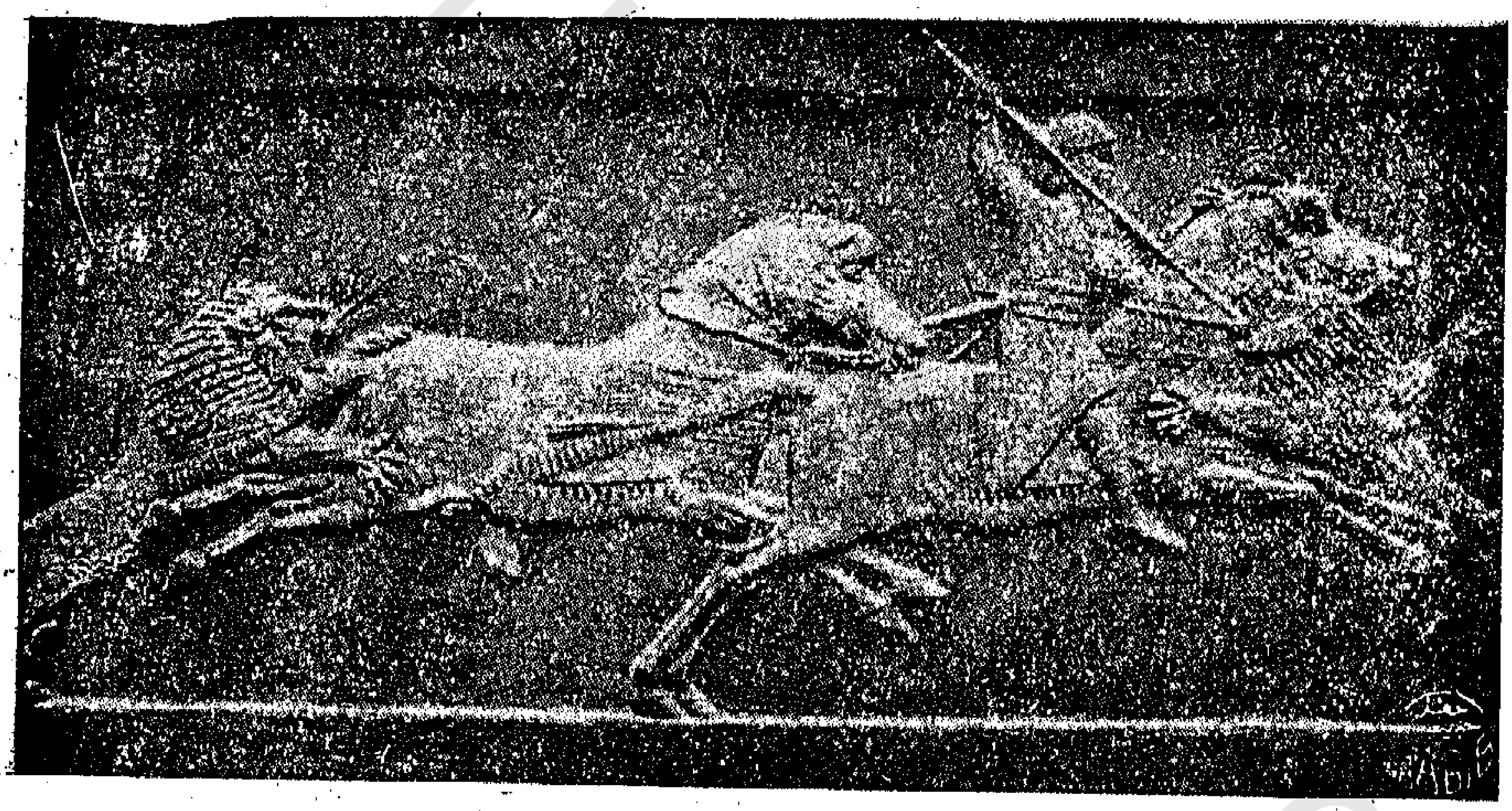

شكل (٣١) صيد الآساد
نقش على المرمر من نينوى — محفوظ فى المتحف البرّيطانى

وأخرج فن النقش المنخفض (القايل البروز) فى أيام المجد أيام سرجون الثانى وسنحريب و عسرهدن وأشور بانيبال وبتشجيع هؤلاء الملوك روائع هى الآن فى المتحف البريطانى . على أن من أجمل آياته تحفة يرجع عهدها إلى أشور بانيبال الثانى وهى من المرمر النقى و تمثل مردك إله الخير يهزم تيامات الخبيث إله الفوضى(٥٧) ، أما صور الآدميين المحفورة فهى جامدة خشنة وكلها متماثلة لا ف. ق بين الواحدة منها والأخرى ، كأنما قد وضع لها نموذج واحد كامل وفرض عليها أن تحاكيه

شكل (٣٢) اللبؤة المحتضرة في نينوى – في المتحف البريطاني

فى جميع العهود . ذلك أن للرجال جميعهم رءوساً ضخمة وشوارب غزيرة ، وبطوناً كبيرة ، وأعناقاً لا تكاد تراها العين . وحتى الآلهة نفسها قد صورت بهذه الصور الأشورية لا تستتر إلا قليلا . ولا تظهر حيوية الرجال فى صورهم إلا فى أحوال

شكل (٣٣) اثور المجنح
وجد فى قصر شور بانيپال الثانى فى كلخ – وهو الآن فى متحف نيويورك

جد نادرة ، منها قطعة المرمر المنقوشة التي تمثل الأرواح تتعبد أمام نخلة هندية[٥٨] . وفى اللوحة الجبرية التي تمثل شمسى أداد السابع والتي عثر عليها في كلخ[٥٩] . أما النقوش التي تثير إعجابنا بحق فهي نقوش الحيوانات ، وما من شك فى أن الفن قديمه وحديثه لم ينجح فى نحت الحيوانات نجاح الفن الأشورى . إن الألواح تكرر أمام الأعين مناظر مملة تمثل الحرب والصيد ، ولكن العين لا تمل قط من النظر إلى حركات الحيـــوانات القوية ونفورها الطبيعى ، وتصويرها البسيط الذى لا تكلف فيه كأنما الفنان الذى حرم عليه أن يصور سادته فى حقيقتهم وفرديتهم قد وهب كل علمه وحذقه لتصوير الحيوانات . وهو يصور منها أنواعاً جمة لا عديد لها - يصور آساداً ، وخيلا ، وحميراً ومعزاً ، وكلاباً ودببة ، وظباء ، وطيوراً ، وجنادب ، ويصورها فى كل وضع من أوضاعها ، ما عدا سكونها . وما أكثر ما يمثلها وهى تعانى سكرات الموت ، ولكنه حتى فى هذه الحال يجعلها مركز الحياة فى صورته وفنه .

وهل هناك ما هو أروع من خيل سرجون الثانى فى نقوش خراساباد[٦٠] ، أو اللبوءة الجريحة التى عثر عليها المنقبون فى قصر سنخريب[٦١] فى نينوى ، أو اللبوءة المحتضرة المنقوشة على حجر المرمر والتى استخرجت من قصر أشور بانيبال[٦٢] ، أو مناظر صيد أشور ناصربال الثانى وأشور بانيپال للآساد[٦٣] ؛ أو منظر اللبوءة المستريحة[٦٤] ، أو الأسد الذى أطلق من الشرك[٦٥] ، أو القطعة التى نقش عليها أسد ولبوءه يستظلان تحت الأشجار[٦٦] . كل هذه من أجمل روائع هذا الفن فى العالم كله . ولسنا ننكر أن تمثيل الأشياء الطبيعية عن طريق الحفر كان عند الأشوريين فنا فجاً خشناً يجرى على سنن جامدة محددة ، وأن أشكاله ثقيلة غير ظريفة ، وأن خطوطه قاسية عسرة ، وأن العضلات مبالغ فيها كثيراً ، وأن كل ما روعى فيها من قواعد المنظور لا يعدو وضع الشيء البعيد فى النصف الأعلى من الصورة بنفس الأبعاد التى رسم بها ما هو أقرب منه إلى الرسم . وما وضع من

تحته فى الصورة ؛ على أن المثالين فى عهد سنحريب عرفوا كيف يعوضون هذه العيوب بما أخرجوه من صور واقعية قوية ، مصقولة حسب الأصول الفنية ، مثل فيها الفنانون حركاتها أوضح تمثيل ، وليس ثمة فيما نقش من الحيوانات شيء

شكل (٣٤) رأس عسر هدن – فى متحف برلين

يفوقها حتى اليوم . لقد كان فن النقش المنخفض للأشوريين ما كان فن النحت لليونان ، أو التصوير الزيتى للإيطاليين فى أيام النهضة ، كان فناً محبباً إليهم ، يعبر تعبيراً فذاً عن مثلهم الأعلى القوى فى الشكل وفى الصفات

هذا ما نقوله عن النقش عند الأشوريين ، أما النحت فكان أقل منه شأناً وأحط منزلة . ويخيل إلينا أن الحفارين فى نينوى وفى كلخ كانوا يفضلون النقش عن التصوير المجسم ، ولذلك لم يصل إلينا من خرائب الأشوريين إلا القليل من التماثيل الكاملة . وليس فيما وصل إلينا منها ما هو ذو قيمة كبيرة . نرى تماثيل الحيوانات مليئة بالحياة والجلال ، كأنها لا تشعر بأنها أعظم من الإنسان قوّة فحسب بل تشعر فوق هذا بأنها أرقى منه خلُقاً — وحسبنا أن نذكر منها الثورين اللذين كانا يحرسان مدخل خراساباد(٦٧) ؛ وأما تماثيل الأناسى والأرباب فهى خشنة ثقيلة بدائية ، مزينة ولكنها لا فروق بينها ، منتصبة ولكنها ميتة . ولعل من الجائز أن نستثنى من هذا الوصف تمثال أشور ناصر بال الثانى الضخم المحفوظ فى المتحف البريطانى الآن . ذلك أن فى وسع الناظر إليه أن يرى فيه من خلال خطوطه الثقيلة ملكاً فى كل شـبر من جسمه ! يرى الصولجان الملكى وقد قبض عليه قبضة قوية ، والشفتين الغليظتين تنمان عن قوة العزيمة ، والعينين القاسيتين اليقظتين ، ويرى عنقاً كعنق الثور ينذر الأعداء والمزورين فى أخبار الضرائب بالشر المستطير ، ويرى قدمين ضخمتين متزنتين على ظهر الأرض أكمل اتزان .

على أننا يجب ألا نقسو فى حكمنا على فن النحت الأشورى ؛ فأكبر الظن أن الأشوريين كانوا كلفين بالعضلات المفتولة والرقاب القصيرة ، وأنهم لو رأوا نحافة أجسامنا التى لا تكاد تشبه نحافة أجسام النساء ورشاقة هرميز الناعمة الشهوانية كما صورها بركستليز أو عـلّـية أپلون لسخروا من هذا كله أشد السخرية . أما من حيث العمارة الأشورية فكيف نستطيع أن نقدر قيمتها إذا كان كل ما بقى منها أنقاضاً وخربات لا تكاد تعلو عما يحيط بها من رمال ، ولا تفصد فى شىء إلا أن

تكون مشجباً يعلق عليه علماء الآثار البواسل ما « يستعيدونه » بخيالهم من أشكال تلك العمائر القديمة . لقد كان الأشوريون كالبابليين الأقدمين والأمريكيين المحدثين لا ينشدون الجمال فى مبانيهم بل كانوا ينشدون العظمة والفخامة وينشدونهما فى ضخامة الأشكال . وجرى الأشوريون فى عمائرهم على سنن الفن فى أرض الجزيرة فاتخذوا اللبن مادة أساسية لمبانيهم ، ولكنهم اختطوا لأنفسهم طريقة خاصة بهم ، بأن اتخذوا واجهاتها من الحجارة أكثر مما فعل البابليون . وورث الأشوريون الأقواس والعقود من أهل الجنوب ، ولكنهم أدخلوا عليها كثيراً من التعديل . وأجروا بعض التجارب على إقامة العمد ، مهدوا بها السبيل للعمد التى فى شكل النساء وللتيجان « الأيونية » الاولبية التى نشاهدها عند الفرس واليونان(٦٨) . ولقد أقاموا قصورهم على مساحات واسعة من الأرض ، وكانوا حكماء إذ لم يعلوا بها أكثر من طبقتين أو ثلاث طبقات(٦٩) . وكان القصر يتألف عادة من عدد من الردهات والغرف تحيط بفناء هادئ ظليل . وكان يحرس مداخل القصور الملكية حيوانات مهولة من الحجارة ، وتصف حول جدران الردهة القريبة من مدخل القصر وتعلق عليها نقوش قليلة البروز وتماثيل تاريخية ، وكانت تبلط بألواح المرمر ، وتعلق على جدرانها أقمشة ثمينة مطرزة مزركشة ، أو تكسى بالأخشاب النادرة الغالية وتحف بها حليات جميلة . أما السقوف فكانت تقوى بكتل خشبية ضخمة ، تغطى فى بعض الأحيان برقائق من الفضة أو الذهب وتصور عليها من أسفلها بعض المناظر الطبيعية(٧٠) .

وكان أعظم المحاربين الستة من ملوك أشور هم أيضاً أعظم البنائين منهم ، فقد أعاد تغلث فلاصر الأول بناء هياكل أشور بالحجارة ، وقال عن واحد منها إنه « جعل داخله متلألئاً كقبة السماء ، وزين جدرانه حتى كانت فى لألاء النجوم المشرقة ، وجعله فخماً ذا سناء وبريق »(٧١) وكان الملوك الذين جاءوا من بعده أسخياء فيما وهبوه للمعابد ، ولكنهم كانوا كسليمان يفضلون عليها قصورهم ؛

فقد شاد أشور ناصربال الثانى فى كلخ قصراً عظيماً من الآجر المبطن بالحجارة وزينه بالنقوش التى تمتدح التقوى والحروب . وقد كشف راسام عند بلاوات بالقرب من هذا الموضع عن بقايا بناء آخر عثر فيه على بابين كبيرين عظيمين من البرنز دقيق الصنع(٧٢) . وخلد سرجون الثانى ذكره بأن أقام قصراً فسيحاً عند دور — شروكين (أى حصن سرجون) فى موضع خراساباد الحالية . وكان على جانبى مدخله أثوار مجنحة ، وعلى جدرانه نقوش وقرميد براق ، وكانت حجراته الواسعة ذات أثاث بديع النقش والصنع كما كانت تزينها تماثيل تبعث فى النفس الروعة والمهابة . وكان سرجون كلما انتصر فى واقعة جاء بالأسرى ليعملوا فى هذا الصرح العظيم ، وجاء بالرخام واللازورد ، والبرنز والفضة ، والذهب ليجمله بها . وشاد حوله طائفة من الهياكل ، وأقام من خلفه زجورات من سبع طبقات غطيت قمة أعلاها بالفضة والذهب وشاد سنحريب فى نينوى قصراً ملكياً سماه « المنقطع النظير » يفوق فى ضخامته كل القصور القديمة(٧٣) . وكانت جدرانه وأرضه تتلألأ فيها نفائس المعادن والأخشاب والحجارة ، وكانت قراميده تنافس فى بريقها آيتى النهار والليل ؛ وصب له صناع المعادن آساداً وأثواراً ضخمة من النحاس ، ونحت له المثالون أثوار مجنحة من حجر الجير والمرمر ، ونقشوا على جدرانه الأغانى الريفية . وواصل عسرهدن توسيع نينوى وإعادة ما تهدم من عمائرها ، وفاقت مبانيه مبانى من سبقوه جميعهم فى روعتها وفى أثاثها وأدواتها المترفة الثمينة . فقد كانت اثنتا عشرة ولاية تقدم إليه حاجته من المواد والرجال ؛ ونقل إلى بلاده آراء جديدة عن العمد والنقوش عرفها أثناء إقامته فى مصر ؛ ولما أتم بناء قصوره وهياكله ملأها بالتحف التى غنمها من جميع بلاد الشرق الأدنى وبما رآه فيها من روائع الفن(٧٤) .

وأسوأ ما يمكن أن يقال عن فن العمارة الأشورية أن قصر عسرهدن قد

انهار كله وأصبح أطلالا بعد ستين سنة من بنائه(٧٥) . ويحدثنا أشـور بانيبال أنه أعاد تشييده ، ويخيل إلينا ونحن نقرأ نقشه أن القرون التي تفصل ما بيننا وبين هـذا العصر قد انطوت ، وأننا نخترق بأبصارنا قلب ذلك الملك :

« وفى ذلك الوقت تقادم عهد الحرم ، مكان الراحة فى القصر . . . الذى شاده سـنحريب ليقيم فيه ، وذلك لطول ما استمتع فيه من بهجة وسرور ، وتداعت جدرانه . وإذ كنت أنا أشور بانيبال ، الملك العظيم ، الملك القادر ، ملك العالم ، ملك أشور ، . . . قد نشأت فى ذلك الحرم وحفظنى فيه أشور ، وسن ، وشمش ، ورامان ، وبل ، ونابو ، وإشتار ، . . . وأنا ولىّ للعهد ، وبسطوا علىّ حمايتهم الطيبة وملاذهم الرضى ؛ . . . ولم ينفكوا يبعثون إلى فيه أنباء سارة عن ظفرنا بأعدائنا ، وإذ كانت أحلامى وأنا على سريرى فى الليل أحلاماً سارة ، كما كانت خيالاتى فى الصباح مبهجة جميلة ، . . . فقد مزقت خرباته ، وأردت أن أوسع رقعته فمزقتها جميعاً . وشدت بناء مساحة أرضه خمسون تيبكى . وبنيت ربوة ولكننى وقفت خائفاً أمام مزارات أربابى الآلهة العظام ، فلم أعل بهذا البناء كثيراً . وفى شهر طيب ، ويوم مُوات ، وضعت أساسه فوق تلك الربوة ، وأقمت البناء ؛ وصببت نبيذ السمسم ونبيذ العنب على قباء مؤنه ، كما صببتهما على جداره الطينى . ولكى أشيد هذا الحرم كان أهل بلادى ينقلون اللبنات فى عربات عيـلام التى غنمتها منهم بأمر الآلهة . وسخرت ملوك بلاد العرب الذين نقضوا الهدنة معى ، والذين أسرتهم فى الحرب بيدى وهم أحياء ، يحملون الأسفاط و (يلبسون) قلانس الفعلة ليشيدوا ذلك الحرم . . . وكانوا يقضون نهارهم فى صـنع اللبنات ويرغمون على العمل فيه أثناء عزف الموسيقى . وشدت بناءه من قواعده حتى سـقفه وأنا مغتبط مسرور ، وأنشأت فيه من الحجرات أكثر مما

كان به قبلا ، وجعلت العمل فيه فخما ، ووضعت فوقه كتلا طويلة من أشجار الأرز التى تنمو على سرارا ولبنان ، وغطيت الأبواب المصنوعة من خشب اللبارو ذى الرائحة الذكية ، بطبقة من النحاس وعلقتها فى مداخله ... وزرعت حوله أيكة حوت جميع أنواع الأشجار ، والفاكهة ... على اختلاف أصنافها . . . ولما فرغت من أعمال بنائه قربت القرابين العظيمة للآلهة أربابى ، ودشنته وأنا مغتبط منشرح الصدر ، ودخلته تحت ظلة فخمة(٧٦) .

obeikandl.com

الفصل الخامس

خاتمة أشور

آخر أيام ملك — أسباب انحلال أشور — سقوط نينوى

بيد أن «الملك العظيم ، الملك القادر ، ملك العالم ، ملك أشور» أخذ فى آخر أيامه يندب سوء حظه . وآخر ما خلفه لنا من الألواح يثير مرة أخرى مسألتى سفر الجامة وسفر أيوب :

«لقد فعلت الخير لله والناس ، للموتى والأحياء ؛ فلِمَ إذن أصابنى المرض وحلّ بى الشقاء ؟ إنى عاجز عن إخماد الفتن التى فى بلدى ، وعن حسم النزاع القائم فى أسرتى ، وإن الفضائح المزعجة لتضايقنى على الدوام ، وأمراض العقل والجسم تطأطئ من إشرافى ، وهأنذا أقضى آخر أيامى أصرخ من شدة الويل ؛ بائساً فى يوم إله المدينة ، يوم العيد . المنيّة تنشب فىّ أظفارها ، وتنحدر بى نحو آخرتى . أندب حظى ليلا ونهاراً ، وأنوح وأعول وأتوجع : «أى إلهى ! هب الرحمة لإنسان وإن كان عاقاً حتى يرى نورك !»[77](*) .

(*) ويصور ديودور هذا الملك فى صورة من أخذ يقضى عمره فى إشباع شهواته النسائية والفجور والفسق المخنث . ولسنا نعرف على أى شىء استند ديودور فى هذا الاتهام . ثم إنه يعزو إليه أنه هو واضع هذه العبارة التى على قبره :

إنك تعلم حق العلم أنك قد ولدت للفناء
فاطرب ، وابتهج فى الأعياد .
وإذا مت فلن يبقى لك بعدئذ ما يسرك ،
ومن أجل هذا فإنى ،
وقد حكمت من قبل نينفس العظيمة ،
لست الآن إلا ترابا .
ولكن قد بقيت لى هذه الأشياء التى ابتهجت بها
فى حياتى — الطعام الذى أكلته ، واللهو الذى
استمتعت به ، وملاذ الحرب ومسراتها .
أما ما عدا هذا من الأشياء التى يراها الناس نعما فقد تركتها خلفى[78]

ولعلنا لا نجد شيئاً من التناقض بين هذا المزاج وبين المزاج الذى تصوره نصوص هذا الكتاب ؛ فقد يكون أحدهما تمهيداً طبياً للآخر .

ولسنا نعرف كيف قضى أشور بانيبال نحبه . فأما القصة التى وضعها بيرُن فى قالب مسرحية ، والتى تقول إنه أشعل النار فى قصره فهلك وسط اللهب ، فإن مردها إلى اكتسياس(٧٩) وهو مؤرّخ مولع بإيراد كل ما هو غريب، وقد لاتكون إلا أسطورة من الأساطير . ومهما تكن ميتته فقد كانت نذيراً بما سيؤول إليه أمر بلاده ورمزاً لآخرتها ؛ لقد كانت هى الأخرى مقبلة على الفناء لأسباب بعضها من صنع يده . ذلك أن حياة أشور الاقتصادية كان جُلّ اعتمادها على ما يصل إليها من خارجها ، وقد أسرف ملوكها فى الجرى على هذه السياسة الحمقاء ، فكان مصدر حياة البلاد هو الفتوح الخارجية التى تأتيها بالمال الوفير من الغنائم والمتاجر . وتلك سياسة تعرضها للخراب فى أية لحظة إذا ما هزمت جيوشها فى واقعة حاسمة . وسرعان ما أخذت الصفات الجسمية والخلقية ، التى جعلت الجيوش الأشورية رهيبة لا تقهر فى ميدان القتال ، تضعف بتأثير الانتصارات التى نالها هؤلاء الجنود ؛ ذلك أن كل واقعة تنتصر فيها أشور كان يهلك فيها أقوى جنودها وأبسلهم ، فلا ينجو من القتل إلا الضعاف والمترددون والحذرون يعودون إلى بلادهم ليكثروا من نسلهم ، وتلك خطة مآلها إضعاف النسل ، ولعلها كانت من أسباب ارتقاء الحضارة لأنها انتزعت من البـــلاد أشد الناس وحشية ، ولكنها قوّضت الأساس الحيوى الذى شادت عليه أشور قوتها . وكان اتساع فتوحها سبباً آخر من أسباب ضعفها . ولم يكن إفقار الحقول من زراعها لإطعام إله الحرب النهم هو السبب الوحيد فى هذا الضعف ، بل كان له سبب آخر وهو أن فتوحها جاءت إليها بالأسرى وبملايين من الأجانب المملقين الذين تناسلوا كما يتناسل المعدمون البائسون ، فلم يبقوا على شىء من الوحدة القومية فى الجسم والخُلُق . وكانوا لكثرتهم المطردة قوّة معادية تعمل على الضعف والانحلال بين الفاتحين أنفسهم . وأخذ هؤلاء الرجال القادمون من البلاد الأجنبية يزداد عديدهم فى الجيش نفسه بينما كان الغزاة أنصاف الهمج يهاجمون البلاد من جميع أطرافها ،

ويستنزفون مواردها فى سلسلة لا آخر لها من الحروب للدفاع عن تخومها غير الطبيعية .

ومات أشور بانيپال فى عام ٦٢٦ ق . م ؛ وبعد أربعة عشر عاماً من موته اجتاح البلاد جيش من البابليين بقيادة نبوخذ نصر ومعه جيش من الميديين بقيادة سياخار وجحافل أخرى غير نظامية من السكوذيين أهل القفقاس ؛ وسرعان ما استولت هذه الجيوش على القلاع الشمالية بسهولة عجيبة . وخربت نينوى تخريباً لا يقلّ فى قسوته وشموله عما فعله ملوكها من قبل بآسوس وبابل ، فأشعلت النار فى المدينة ، وذُبح أهلها أو سيقوا أسرى ، ونُهب القصر الذى شاده أشور بانيپال من عهد قصير ثم دُمّر أشنع تدمير . وهكذا اختتمت أشور من التاريخ ، ولم يبق منها إلا بعض أفانين الحرب وأسلحتها ، وتيجان لولبية لبعض عمدها النصف « الأيونية » ، وبعض النظم الإدارية لحكم الولايات انتقلت منها إلى الفُرْس ومقدونية ورومة . وظل الشرق الأدنى بعض الوقت يذكر لها قسوتها فى توحيد نحو اثنى عشرة دولة صغيرة تحت سلطانها ؛ وتحدّث اليهود عن نينوى حديثاً ينطوى على الحقد والضغينة ووصفوها بأنها : « المدينة الدموية ، التى تفيض بالكذب واللصوصية »(٨٠) . وما هى إلا فترة قصيرة حتى نسى الناس أسماء ملوكها العظام ما عدا أعظمهم قوة وبطشاً ، وأصبحت قصورهم خربات دارسة تحت الرمال السافية . وبعد مائتى عام من الاستيلاء على نينوى وطئت جيوش أكسنوفون التى تبلغ عدتها عشرة آلاف مقاتل الأكوام التى كانت من قبل نينوى ، ولم يدر بخلدها قط أن هذه الأكوام بعينها هى موضع الحاضرة القديمة التى كانت تحكم نصف العالم . ولم تقع أعين هذه الجيوش على حجر واحد من حجارة الهياكل التى حاول جنود أشور الأتقياء أن يجملوا بها أعظم عواصمهم . وحتى أشور نفسه إلهها الخالد أمسى فى عداد الموتى .

ملحوظة : استعنا فى تحقيق أسماء الأماكن الواردة فى هذا الباب وفى البابين السابقين بالخرائط الجغرافية والتاريخية التى تفضلت بإعارتنا إياها المفوضية العراقية بالقاهرة ووزارة الخارجية العراقية . (المترجم)